تعددت الأشكال.. والموت واحد

لم يشفع للفتاة (ص) التي قتلت في العام 2012 في قطاع غزة تفوقها الأكاديمي في دراستها الجامعية وحصولها على معدل عالي جداً، مثلما لم يشفع لها أن جامعتها قررت تعيينها معيدة في الجامعة بسبب هذا التفوق. لم يشفع لها هدوئها وأخلاقها العالية مثلما لم يشفع لها عملها في تلك المهنة التي تنطوي على كل ما هو إنساني، وهي مهنة التمريض، وبالذات في قسم التوليد في إحدى مستشفيات القطاع. لم يشفع لها كل ذلك، فالموت لا يعرف الرحمة، ويأتي في أي وقت من العمر، ولا يأخذ بالحسبان أية إعتبارات، وبكل قساوة يفعل فعله في الإنسان تاركاً ورائه حبلاً طويلاً من الحزن والألم. وإذا أردنا أن نتحدث عن صعوبة الموت وقساوته فإن الباب يبقى مفتوحا بإستمرار لحالات وأمثلة جديدة عن القساوة، والتأكيد عليها. أما أصعبها فهو حين يتقمص الموت إنساناً ليقتل انساناً آخر. وحينها لا تتوقف الأسئلة عن الظهور عن الأسباب والمسببات، والأسباب الحقيقية غير المعلنة والأسباب غير الحقيقية والمعلنة.. وغيرها من الأسئلة التي لا تسقط بأي حال من الأحوال بالتقادم.

صحيح أن كل تفوّق (ص) وأخلاقها وهدوئها وعملها لم يشفعا لها أمام الموت الذي إختطفها في الخامسة والعشرين، لكن من يدري ربما يكون هناك شفاعة في موتها، على الأقل لم يكتبوا في ملفها في الشرطة عند إغلاقه كلمات لها علاقة "بالشرف" أو أي من المفاهيم المرتبطة به. بل كُتبت عبارة "نوبة قلبية"، وكفى الله الشرطة والمحققين وكل المعنيين بالحقيقة شر التحقيق وويلاته وتشعباته. ورقدت هي في قبرها مع نوبتها القلبية، أما بالنسبة للحقيقة فلا زالت تعاني من خطر نوبات الشكوك والكذب وربما "الملمة" المواضيع والقضايا. المفارقة هنا ان يكون السبب المعلن للموت هو بحد ذاته شفاعة، حتى وان كان سبب مشكوك فيه.

يقدم الأديب إميل حبيبي مثلا لسبب إطلاق إسم "المتشائل" على عائلة بطل روايته وهو "سعيد أبي النحس المتشائل" بالقول على لسان البطل نفسه انه حين أعادو إليهم جثة شقيقه قطعا قطعا بسبب حادث عمل وقع له في ميناء حيفا حيث تقطعت جثته فان رد فعل والدته فكان بالقول "جيد ان هذا حصل ولم يحصل اسوأ من ذلك. وحين تفاجأت زوجة شقيقه، والتي لم يمضي على زواجها سوى شهر، من جواب الوالدة وسألتها ما هو الأسوأ؟ اجابتها والدته: ان تهربي في حياته مع رجل آخر".

وكأن المثال هنا يقول الحمد لله انها ماتت بالنوبة القلبية، وهذا شيء جيد، انها فعلا من المفارقات الساخرة، وانها لم تمت مثلاً قتلا على خلفية ما كخلفية "الشرف". في كل الأحوال فإن هناك مفارقات أخرى في قصة الفتاة (ص)، حيث اعلنت الشرطة في البداية عن اكتشاف جثتها على رصيف إحدى الشوارع، وبعد تحويلها لفحص الطبيب الشرعي تبين

انها ماتت خنقا في ظروف غامضة. وبعد أيام صدر بيان آخر يقول أنها ماتت بسبب نوبة قلبية. بين هذا وذاك فرق شاسع لا يفك لغزه الإ الحقيقة، لمن يريد الحقيقة فعلا ومعني بالبحث عنها. أما في قاموس قتل النساء والفتيات فان الحقيقة عادة ما يتم دفنها مع الجثة، وأحيانا قبل الجثة، لتتحول الى مجرد رقم.